مبادئ الديمقراطية العلمية في الأزمة الحاضرة

للأستاذ محمد فريد وجدي بك

اعتبر العلم منذ أول نشوئه منافساً الدين ، ثم مالبث أن تطور التنافس بينهما إلى تحاصم بسبب اختلاف وجهتيهما . سار كل منهما في طريقه عاملا على هدم منافسه ، وتجاوزت المخاصمة بينهما في آخر أدوارها حدود الكلام إلى الأخذ بالنواصي والأقدام ، وكان رجال العلم في هذا الدور في أوروبا هدفا لأقسى ضروب الإضطهاد ، ولم ينقذهم من الفناء إلا نشوء انقسام ديني خطير كانت نتيجته في القرن السادس عشر حدوث عهد جديد من حرية البحث والتفكير ، خطا العلم بعدها خطوات سريعة ، وخاصة في القرن التاسع عشر ، في سبيل استكشاف مجهولات ، وإظهار مخترعات وجهت الأنظار إليه ، وجعلت المعول في ترقية الانسانية عليه .

ظل العلم من الناحية الاعتقادية عدواً للدين ، راميا إلى محو أثره من النفسية البشرية ، لاعتباره إياه عاملا انقضى زمنه ، وبطلت الحاجة إليه ، وما ليس إليه حاجة مادية أو أدبية ، كان وجوده معطلا الآخذين به من التأدي إلى الكمال المنشود .

ولكن في القرن التاسع عشر نفسه الذي نال العلم فيه أقصى مناه من الدين ، ظهرت آراء علمية ، قضت بها الضرورة ، كان لها أثر فعال في إعادة سلطان الدين إليه ، منها الحاجة الملحة إلى إفتراض وجود عنصر أولي لطيف إلى أقصى حد ، مالىء للكون كله دعوه الاثير ، لا يخلو منه حيز في الأرض ولا في السماء ، وأنه كان موجودا من أزل الآزال ، وسيبقى موجوداً أبد الآباد ، وأنه أصل المادة منه نشأت وإليه تعود . وغلا الأستاذ (هيكيل) المدرس بجامعة (يينا) من ألمانيا فكتب في كتابه وحدة الوجود (المونيسم) يقول :

« نعم ، إن نظرية الأثير إذا أخذت كقاعدة للايمان يمكنها أن تعطينا شكلا معقولا للدين ، وذلك إذا جعلنا إزاء تلك الكتلة الجامدة الثقيلة ، وهي المادة ، ذلك الأثير الموجود في كل مكان ، الذي يمكن اعتباره إلها خالقاً » .

ثم أيد رأيه هذا الأستاذ (شليسنجر) الألماني الذي ألقى به في خطبة ألقاها في (التينبورغ) بالمانيا وهو .

« إن أحقر مظهر من مظاهر الطبيعة غير الآلية ، وأكبر مجلى من مجالي الحياة الآلية ، يمكن أن يعلل وجودهما بفعل قوى طبيعية واحدة . وبما أنهما من جهة أخرى يشتركان في الصدور من الأصل الأصيل المتوحد ، الذي يملأ الوجود اللانهائي ، وهو الأثير ، فيمكن اعتبار هذا الأثير إلها ، ويكون نتيجة ذلك الحكم أن الاعتقاد بالخالق يتفق والعلوم الطبيعية . » .

إلى هذا الحد وصل اعتداد الطبيعيين بالأثير ، وهو عنصر افتراضي ، اضطر الطبيعيون اليه ، لأنه لا يمكن تعليل كثير من ظواهر الطبيعة بدون افتراض وجوده ، فهل بقي لهم وجه للاعتراض على الدينيين في القول بوجوب وجود قدرة عليا أوجدت الوجود كله ، ومتعته بالقوى والنواميس الضرورية ، لبنائه على ماهو عليه ، من تنوع موجوداته ، وتباين كائناته ؟ .

لعمري إن ماذكرناه لربح للدين من العلم أعاد إليه ما سلبه منه من الاحترام في نظر أتباعه ، فكان هذا جزاء للعلم من جنس العمل على نحو لا يمكن إخفاؤه ، يجب أن يفطن له الذين يهيمنون على العقائد .

وكان مما فتن أهل العلم منذ أكثر من الفي سنة ما ارتآه (ديموكريت) الفيلسوف اليوناني من أن أصل المادة جواهر فردة متناهية في الصغر لانقبل الانقسام تتألف مادة جميع الأجسام الكونية منها .

انتشر هذا الرأي وأخذ به أهل العلم في كل مكان وزمان ، وقارعوا به حجج الدينيين في أن المادة محدثة كسائر الموجودات ، وظل الأمر على هذا المنوال قرونا ، ودرس الناس في كل أمة علم الطبيعة على هذا النحو حتى أواخر القرن التاسع عشر ، فرأى الأستاذ اللورد (رود زفورد) من أساتذة جامعة منشستر أن الجوهر الفرد لا يعقل أن يكون حصاة جامدة متناهية في الصغر ، وأنها لابد من أن تكون مجتمع قوى لو أمكن فض اجتماعها أحدث تفرقها قوى هائلة يمكن استخدامها في الشئون الصناعية . وأخذ من ذلك الحين يحاول حلها . كان ذلك في سنة (١٨٧٥) . وما جاءت سنة (١٩١٠) حتى كان بعض الطبيعيين قد تمكنوا من تفتيت الذرة فثبت ثبوتا علمياً أنها مجتمع من القوى ، فزال من الأذهان ما كان يقوله الماديون من قدم

المادة حتى أن الدكتور (فيلبون) كتب فى مجلة (العلم والحياة) سنة (١٩١٧) يقول :

« لقد حلت كلمة (القوة) محل كلمة (المادة) ، فما يدرينا إذا كانت كلمة (روح) لاتحل محل كلمة (قوة) ؟ » .

وقال الفلسوف (جيو) فى كتابه (اللادين فى المستقبل) ولا يتهم بمشايعة الأديان ، قال فى طبعته السادسة :

« إن الرأى الذى مؤداه : إن الجوهر الفرد لايقبل الانقسام ولا التجزؤ ، يعتبر من الوجهة الفلسفية من الآراء الطفلية . فقد أثبت طومسون وهو اولتز أن الذرات فى ذاتها زوبعات متشابهة ثم قال :

« إذا وسع المذهب المادى مدى نظره ، وجب عليه أولا نسبة الحياة إلى العنصر العام بدلا من أن يفرضه مادة عمياء » .

ثم نقل الفيلسوف جيو بعد ذلك عن سبنسر قوله :

« قال الفيلسوف سبنسر : « كل جيل من الطبيعيين يكشف فى المادة المسماة عمياء قوى ما كان يحلم بوجودها أعلم علماء الطبيعة قبل ذلك بسنين معدودة . » . فاننا لما رأينا أجساما جامدة تحس رغما من جمودها الظاهر بتأثير قوى لايحصى عددها ؛ ولما أثبتت لنا آلة التحليل الطيفى بأن الذرات الأرضية تتحرك موافقة حركة الذرات الموجودة فى الكواكب ، ولما اضطررنا إلى أن نستنتج من ذلك أن ذبذبات لا يحصى لها عدد تخترق الفضاء فى كل جهة وتحركه ، لما رأينا ذلك كله ، وجب علينا أن ندرك ماقاله (سبنسر) من أن الوجود ليس بمؤلف من مادة ميتة ، ولكنه وجود حى فى كل جهة من جهاته ، حى بأعم معانى هذه الكلمة ، إن لم يكن بأخص معانيها »

وهذا أيضاً ريح عظيم للدين آتاه به العلم بعدما ملأ الخافقين إيذاناً بأن الدين قد قضى زمنه ، وانتهت مهمته .

وفى العالم تدور بحوث منذ أكثر من مائة وخمسين سنة موضوعها النفس الإنسانية ، كان فى مقدمتها مادعاه مكتشفه الدكتور (مسمر) الألمانى حوالى سنة (١٧٧٠) بالتنويم المغناطيسى ، وقد ثبت بتجارب العلماء فيه من خصائص الروح الانسانية ماكاد لايصدق لولا أنه شوهد مشاهدة علمية لاتدع عذراً لمستريب . ثبت منه أن الانسان متى وقع فى ذلك الضرب من النوم ، ظهر له عقل أرقى من عقله ، وذاكرة لايفلت منها ما كبر أو صغر من حوادثه ، فيدرك ما يراد منه إدراكه بذاته ، لا بأية آلة من آلاته ، وتظهر له من الخواص مايفوق ذلك ، خصائص روحية لاجدال فيها ، وهى مع ذلك تجريبية محسوسة.

وقد سلك العلماء سبيلا أخرى للوقوف على ما نجهله من خصائص النفس منذ قرن واحد وصلوا منها إلى غايات بعيدة ، ومكتشفات مدهشة .

كل هذا ربحه الدين من العلم فى مدى المائة وخمسين سنة الأخيرة ، وهى تكفى لدحض كل فلسفة مادية ، وإكساب حجة الدين قوة تجعلها فوق متناول الشكوك .

أليس من العجيب بعد هذا أن رجال الدين لايأبهون لهذه الأسلحة العلمية، بل يوجد فيهم من يكذب بها ويعمل على ملاشاتها ! ألا فليتحققوا أن العصر الذى نعيش فيه هو عصر العلم ، وأن أى مدرك من المدركات ، لايمكن أن يأبه به أحد ممن يعتد بهم إلا إذا جاءه من طريق العلم ، فلا نجعلن بيننا وبينه حجابا ، ولنستفد مما وصل إليه من التطور لنجتذب القلوب إلى حظيرة الحقائق الإلهية الخالدة بما تقرر فيه من المكتشفات الباهرة ، فان كان لابد للقائمين بذلك من درآسة خاصة فلنقم بها ، وما يذكر إلا أولو الألباب .

محمد فريد وجدى

السلسلة الفلسفية الاجتماعية

— ٤ —

صدر اليوم :

للدكتور توفيق الطويل

مدرس الفلسفة بجامعة فاروق

قصة النزاع

بين الدين والفلسفة

الثمن ٣٠ عدا البريد

تقدمه

مكتبة الآداب بالجماميز

ت ٤٢٧٧٧ والمكتبات الشهيرة

ويطلب من دار التوزيع والطباعة والنشر ٥٣ شارع إبراهيم باشا